حرب صعدة السابعة... في صنعاء

منى صفوان*

منذ إعلان انتهاء حرب صعدة السادسة، واليمنيون ينتظرون الحرب السابعة، لكن هذه المرة الحرب السابعة في صنعاء. الحوثيون يتمددون، ويخرجون عن رقعتهم. فصعدة تتمدد لتحاصر صنعاء، وتثبت حجم قوتها وتأثيرها. إذ من كانوا أقلية أصبحوا اليوم قوة، وها هم الآن في قلب صنعاء التي أخرجوا منها، فصنعاء هي معقل المذهب الزيدي، مذهب أهل الشمال في اليمن، أي حوالى أكثر من نصف السكان. وقبل أن يحاصروا في قراهم وجبالهم، لم يكن في اليمن أي عيب مذهبي، أو تشوه في النسيج الاجتماعي، لكن المد السلفي، الذي زحف الى مساجد صعدة، قلب المعادلة.

المد الحوثي مرتكز في «عمران»، المحافظة التي

> ليس في اليمن دولة ومن يحكمه عليه عقد تحالفات قبلية ودينية وعسكرية

اعتبرها الإصلاحيون معقلهم لوقت طويل منذ إعلان حزب الإصلاح قبل اثنين وعشرين عاماً، وخاصة أنّ هذه المحافظة استحدثت في الخريطة في التقسيم الإداري بعد إعلان دولة الوحدة، في 1990، ومن يومها هي معقل آل الأحمر وقبيلة حاشد. لكن «عمران» هي مفتاح صعدة، وهي نقطة نزاع قبلية ـ سياسية، وحالياً مذهبية إن شئتم، فالمسلحون الذين يشتبكون في مساجدها يؤكدون أنّ الحرب التي بدأت من على منابر المساجد، لن تنتهي إلا على المنبر.

فخطيب الجامع هو الذي يحدد كل شيء في المدينة، ويحدد تبعيتها السياسية والقبلية. والخطيب يأتي على فوهة دبابة، كأي انقلاب عسكري. وفي هذه المنطقة الوعرة قبلياً، عليك أن تقسمها الى قبيلتين «حاشد» و«بكيل»، حاشد دائماً كانت في حزب «الإصلاح»، أو نصيرة لهذا الحزب الإسلامي، فالقبيلة تحتاج الى أفيون الدين والحزب الإسلامي يحتاج الى نفوذ القبيلة وهذا التحالف ليس جديداً، بل يمتد عمره الى أربعينيات القرن الماضي.

حاشد هي قبيلة «آل الأحمر». وكان شيخ مشائخ حاشد المرحوم «عبد الله بن حسين الأحمر» الأمين العام السابق لحزب الإصلاح. وبعد موته، لا يزال التحالف بين قبيلة حاشد والإصلاح قائماً.

أما قبيلة «بكيل»، فدائماً هي ضد حاشد، وهي المنافس السياسي والاجتماعي والتاريخي، وتحالفها مع الهاشميين لم يجعل الحرب إصلاحية ـ حوثية فقط، بل حرباً حاشدية ـ بكيلية، ويمكن النظر لها كحرب قبلية لا كحرب مذهبية، فالعنصر السائد في اليمن هو القبيلة، والعنصر المتنحي هو المذهب الديني.

الحركة الإخوانية والحركة الزيدية، كلاهما وكلاء لحرب بالوكالة بين القبيلتين الأكبر والأشهر في اليمن، صاحبتا الإرث التاريخي في النزاع على النفوذ والثروة. ربما استفادت حركة الحوثي من الصراع، فالحركة تتحول الى حركة سياسية لها تحالفات ممتدة من صعدة، وتعبر مناطق القبائل في الجوف وحجة لتصل الى قلب تعز تحديداً، وربما بعض مدن الجنوب، المعروف عنها المدنية، مع عدم وجود أي تقارب مذهبي أو حتى اجتماعي ـ قبلي، لكن التقارب هو سياسي بامتياز.

الإصلاحيون مستفزون من هذا التوسع، ويتهمون الحركة بالوصول الى عمران وحجة والجوف ومأرب. أي أن هناك الآن ما يقارب من خمس محافظات بيد الحوثي سقطت من يد الإصلاح. لن أستخدم عبارة سقطت من يد الدولة، لأنّ كلاهما دولة، فليس في اليمن دولة، هناك قبائل ومراكز نفوذ، ومن يحكم اليمن عليه عقد تحالفات قبلية ودينية وعسكرية كما فعل «علي عبد الله صالح» مقوّض الدولة الأول.

هذه المناطق الآن بعد الإزاحة الخفيفة «لصالح»، خرجت من دولة الإصلاح، الى دولة الحوثيين.

وفي الوقت الذي كانت فيه هذه المناطق تحت سيطرة الإصلاح، كان التحالف قوياً جداً بين الإصلاح و«صالح»، برغم الخلاف السياسي الظاهر. إلا أنّ تركيبة اليمن القبلية تحتم بقاء نفوذ الإصلاح في مناطق حاشد، للسيطرة على بكيل. لماذا؟ لأن «صالح» أيضاً من قبيلة حاشد.

يمني يطالب بمحاكمة صالح (خالد عبدالله ـ رويترز)

يعرف الحوثيون تماماً أنّ سيطرتهم على صعدة الآن لن تتم إلا إذا أمنوا مخارجها ومداخلها ومنافذها البرية والبحرية والجبلية. ولا تستغرب إن سمعت أخباراً عن أنّهم يحاولون شراء أراضي قريبة من الموانئ، والمنافذ البحرية التي تطل عليها الجبال الشاهقة. فالموقع الاستراتيجي الذي يمكن الحركةَ الحصول عليه يبرر العراك الدموي الحاصل بين الطرفين.

قد يبدو أنّ الإصلاحيين يفقدون شعبيتهم، وأنصارهم، والأهم أنّهم يفقدون استراتيجيتهم في الحفاظ على مواقعهم القبيلة. وإن فقدوا شمال الشمال فهذا يعني التمترس في صنعاء. والاتجاه نحو الجنوب قد لا يستمر، فقد ينجح مشروع الانفصال، حتى وإن كان هناك حراك موالٍ للإصلاحيين، فليس هناك حراك واحد. إذ لكل تيار سياسي أو زعيم سياسي حراك جنوبي خاص به.

الوضع المعقد يحتاج إلى بعض اللمسات ليصبح «باقة من التعقيدات»، مثل أن تعرف عزيزي القارئ، أنّ الحراك الجنوبي الممول من الإصلاح والتيار الإخواني قد لا يستطيع السيطرة على القرار في الجنوب، بسبب حراك آخر كحراك القاعدة المنافس، والذي يسعى الى انتزاع الجنوب من تحت سيطرة الإصلاح، فالحرب في الجنوب هي بين أجنحة القاعدة.

كل هذا لا يعني إلا شيئاً واحداً، أنّ صنعاء أصبحت محاصرة، بعد تمدد صعدة، وفي استمرار النزعة الانفصالية للحراكيين. عدن وصعدة كلاهما ذاقا الحكم المركزي الشمولي، والآن صنعاء تدفع ثمن حروبها: حرب 94 في الجنوب، وحروب صعدة الست في الشمال.

صنعاء الآن هي فقط عاصمة حكومة الوفاق، وعاصمة المبادرة الخليجية، وعاصمة الرئيس الجديد «هادي» المدعوم من الأميركيين والخليج، وعاصمة الإصلاح، وكذلك عاصمة الثورة التي تتصارع أجنحتها. كما هي عاصمة الرئيس السابق «علي عبد الله صالح» بما يملكه من 60% من الجيش وعاصمة الشيخ «حميد الأحمر»، وعاصمة اللواء المنشقّ «علي محسن الأحمر» وفرقته الأولى مدرع، وعاصمة الحوار والعراك، والأحزاب اليسارية والسلفية. كل هذا يبرر حصار صنعاء، المكتظة بالأحداث والانفجارات ومحاولات الاغتيال. تهديد التحالف القبلي الإسلامي في صنعاء أصبح على أيدي الحوثيين والحراكيين... صنعاء تدفع ثمن ما فعله علي عبد الله صالح بهم...

ففي زمانها القريب، كانت صنعاء تذهب الى الحوثيين في عقر دارهم، وتهدم البيوت على رؤوس أهلها، وتذهب الى الجنوبيين في شواطئهم وتزرع فيهم القاعدة. واليوم القاعدة والحوثيون هنا في قلب صنعاء، وعلي عبد الله صالح لم يغادر بعد.

* صحافية يمنية

دولة النعامة

غسان الشامي*

ما إن يحطّ الرئيس ميشال سليمان في قصر بعبدا حتى تبدأ دوائره بالإعداد للرحلة المقبلة، وهو بذلك يتشبّه بالبابا يوحنا بولس الثاني الملقّب بـ«البابا الطائر»، والحجّة أنّ فخامته يحمل لبنان في الحل والترحال ويثبته على الخريطة الكونية. أما وجه الشبه بين الرجلين فهو أنّ الأول دكّ جدار برلين، فيما

> ماذا سيحصل عند انقشاع غبار المعارك في سوريا سلباً أو إيجاباً؟

جدران لبنان مثقوبة ومنتهكة وتحتاج إلى سد فجواتها.

لبنان ليس زجلاً وكلمات مسجوعة وترداداً مرضياً لِلازمات تقارب هشاشة البلد الذي كان «أخضر حلو»، فما بين «غادرَ وحطّ» فخامته، يراوغ رئيس الوزراء قاموساً خلّبياً من النأي بالنفس، الذي بات أعلوكة، وهي بالفطرة أمّارة بالسوء السياسي، ويذهب البلد من فراغ إلى آخر، ومن ركاكة أمنية إلى صحوة تطبيق قوانين السير واقتناص الدراجات والخلاف على منع تدخين السيجارة والسماح للنارجيلة، ربما لأنّها عثمانية الأصل.

كل هذا، وحمّى الداخل السوري تسري في جسد لبنان، المشقوف ما بين مؤيد للدولة السورية، بما هي عليه حالياً مع مطالبتها بالإصلاح، وما بين معارض لها يزج أنفه وذراعه وسلاحه في شؤونها، ويمارس معكوس السياسة المعلنة رسمياً.

سلاح يمر، ورجال يعبرون الحدود وزعيق وشتائم وفحيح مذهبي وبيئة حاضنة لمعارضة سورية مسلحة باتت تشارك في النزاع الداخلي المطيّف، من دون سؤال عن مؤدى ومردود وغلّة ذلك في قادمات الأيام، ما يطرح سؤالاً مفصلياً هو الآتي: ماذا سيحصل عند انقشاع غبار المعارك في سوريا سلباً أو إيجاباً؟ وماذا سيكون موقف من زجوا أنفسهم طرفاً حتى النخاع؟ وما هو وضع البلد وقتها؟

الجواب، أن بعض الغارقين في أحقادهم لا يزالون يمنّون النفس أسبوعاً تلو آخر بسقوط الدولة السورية، وأنّ «جماعتهم» هناك قادمون لمساعدتهم على قلب الطاولة في لبنان، وإعادة الغائبين إلى سدة الحكم، وشطب مفاعيل 7 أيار أولاً و11 شباط ثانياً.

والحال أنّ هذه السياسة تغضّن نعامة، لأنّه كيفما كان المآل في الشأن السوري لن ينفد لبنان بجلده، فلو ربح المعارضون المعركة، وهذا مستبعد، فإنّ قوى داخلية لن تقبل بالانقلاب على الستاتيكو الحالي، لا بل ستعزز مواقعها، وبخاصة أنّ هذه المعارضة تناصب هذه القوى العداء مذهبياً وسياسياً وثقافياً، وعندما يحسمُ الجيش السوري المعركة ويبدأ الحديث السياسي الداخلي فإنّ من أوغل في دماء السوريين من عتاة المشروع المستعرب المحشو بالحقد سيدفعون ثمناً غالياً. إذ إن زمن العفو بات أبعد من مهوى رأس النعامة، وفي الحالتين سيكون لبنان يتقلّى في نأيه عن الواقع، لا بل خارجه، فيما لن يكون لدى الرئيس من يكاتبه، ويتابع حياته مع شارع عريض باسمه، مع العلم بأنّ التاريخ لا يكترث كثيراً لأسماء الشوارع، وبدأ الناس يعتادون على الأرقام. أما رئيس الوزراء فسيكون نائياً يعدّ أرباح أعماله، وهو أصلاً لا يكترث للتاريخ. أما لبنان فسيبقى محكوماً بمنظومات زجلية لأنّه لم يفكر يوماً بتغيير نفسه، مستعيضاً عن ذلك بمحاولته إسداء النصح للآخرين بتغيير ذواتهم.

* كاتب لبناني

والإخوان منسجمون مع أنفسهم في السياسة الاقتصاديّة. إنّ الحركة رجعيّة يمينيّة في رؤيتها الاقتصاديّة، وهي لا تختلف أبداً مع وصفات البنك الدولي وصندوق النقد العالمي. على العكس، فإن وصفات المؤسّسات الماليّة الغربيّة تتواءم مع الحلول الإسلاميّة للإخوان. وحركة «النهضة» في تونس أرادت الحفاظ على الفريق الاقتصادي لبن علي لسببيْن لا لسبب واحد، يتعلّق بطمأنة الدول الغربيّة حيال النيات المُعادية للاشتراكيّة والليبراليّة المُعاصرة (لا النيو ـ ليبراليّة). وفي مصر حيث وقفت حركة الإخوان المسلمين مبكّراً ضد اشتراكيّة النظام الناصري وتحالفت مع آل سعود والإقطاع الملكي، بات جذب الرساميل الأجنبيّة وفتح مصر أمام السياحة الغربيّة أهم من هدف تطبيق الشريعة ـ والشريعة ليّنة ومطواعة عند الإخوان وتخضع للتعديل بناءً على أوامر أميركا وإسرائيل.

قبع الإخوان في الظلّ وفي الطبقة السفلى وفي السجون لسنوات وسنوات. وعدوا بتغيير جذري في الحكم في مصر وفي كل البلدان. اتضح ما يجب ألا يكون مفاجئاً: أن الإخوان كانوا منذ الخمسينيات إلى الآن جزءاً من النظام العربي الخليجي الرسمي المحافظ، والمتعاون مع أميركا. لكن الرأي العام العربي يرى اليوم الإخوان على حقيقتهم من دون تجميل مصطنع ومن دون خطب مجانيّة غير مثقلة بتجربة السلطة. لعلّ انهيار سحر الإخوان يجب أن يمرّ عبر صندوق الاقتراع. لعلّ الديموقراطيّة ستكون قاتلة لهذا التنظيم ذي التاريخ الطويل.

مرّت ذكرى جمال عبد الناصر قبل أيّام. تتذكّر الرجل وتقيّمه سلباً وإيجاباً، وتقول في إنصافه إن قمعه للإخوان لم يكن نقيصة، بل كان واحدة من فضائله. بحقّ.

* أستاذ العلوم السياسيّة في جامعة كاليفورنيا (موقعه على الإنترنت: angryarab.blogspot.com)